في مضمار المناقشة فيها كبار الفلاسفة ورجال السياسة كسبنسر وغلادستون . ويظهر لنا انها تحل بهاتين الواسطتين الاولى ان تتداخل الحكومة في امر ابتياع الارض فتحفظ للفقراء جانباً من ارضهم يقوم بمعاشهم ولا تسمح بابتياعه منهم او تحدّد للارض اجرة معلومة كما تحدد اسعار المبيعات في المدن . والثانية ان يزيد اهتمام الفضلاء في حث الاغنياء على الانفاق من اموالهم في عمل البر . وقد تدارك مشترعو الاديان ذلك فامرت الديانة الموسويّة بترك الارض للفقراء كل سنة سابعة وبترك زوايا الحقول لهم واجازت لهم ان يأكلوا الى الشبع من كل حقل يمرّون به . وامرت الديانة المسيحيّة بالتصدق على الفقراء والمساكين والديانة المحمديّة بتزكية الاموال والمقتنيات والانفاق في سبيل البر والاحسان . وخير لذوي السعة ان ينفقوا من سعتهم ولا يتركوا اموالهم الوفيرة لاولادهم فتقودهم الى الترف والاسراف وما ينتج عنهما من الشرور

الاستقلال والمتابعة

الناس رجلان رجل مستقلّ في افكاره وافعاله يخطّ لنفسه خطة بعد طول البحث وإعمال الفكرة ويمشي عليها غير متابع احدًا . ورجل لا يكلف نفسه مشقة البحث والتحري فيمشي على الخطة التي اختطها له غيره ويتابع من تقدّمه في افكاره وافعاله . والفرق بين الشعوب المرتقية والمنحطة يتوقف على ما فيها من الرجال المستقلين والمتابعين فاذا كثر فيها المستقلون المبتكرون فهي في ميدان الارتقاء والتقدّم واذا قلّ فيها عدد هولاء وزاد عدد المتابعين وقفت اولاً على حالة واحدة ثم اخذت تتقهقر . ويصدق ذلك على كل مطلب من المطالب . هاك صناعة الانشاء في اللغة العربيّة فانه لما كانت الامم المتكلمة بالعربيّة مستقلّة في صناعة الانشاء مبتكرة فيها كانت جارية في مضمار التقدّم راقية سلّم النجاح ثم لما جعل كتابها يقتصرون على المتابعة والتقليد اخذت تتقهقر وتضعف وقس على ذلك جميع اللغات . وهاك ايضاً صناعة النقش التي اشتهر فيها المصريون من قدم الزمان فانه لما كانت هذه الصناعة مرتقية مطلقة من قيود التقليد كانت البلاد كلها راقية مراقي النجاح ثم لما وقفت هذه الصناعة عن الارتقاء والابتكار وصار الصنّاع يتابعون من تقدمهم ويحذون حذوه ولا يحيدون عن خطوه قيد انملة ولا بسرة وقفت تقدّم البلاد كلها

وانحطت صناعة النقش رويدًا رويدًا حتّى ان من يطلع على الآثار المصريّة الباقية الى هذا العهد يعلم منها ما اذا كانت صُنعت والبلاد في تقدّم او تأخّر . وهذا شأن صناعة البناء وعمل الآلات فان المتابعة وعدم التفنن فيهما دليل على الخمول والانحطاط

ومما يعلم بالمشاهدة والاستقراء انهُ اذا كثر المستقلّون في عملٍ من الاعمال كثر المستقلون في غيرهِ ايضًا واذا كثر المتابعون في عملٍ كثر المتابعون في غيرهِ . وعلى هذا النحو ترى الشعوب الاوربيّة جاريةً في مضمار الاختراع والاستنباط جريًا حثيثًا في كل امرٍ كأن كل فرد من افرادها يقصد ان يخط لنفسهِ خطةً جديدة يمشي عليها . فالاستاذ الذي يعين في مدرسة جامعة لتعليم علم من العلوم لا يستعمل كتاب الاستاذ الذي تقدمهُ ولو كان استاذهُ ولا يجربهِ على اسلوبهِ في التعليم بل يعمل فكرتهُ ويجهد قريحتهُ في تأليف كتاب جديد واستنباط اساليب اخرى للتعليم والتفهيم . والصانع الذي يتعلم حرفة لا يكتفي بما تعلمهُ ولا بالادوات التي تعلم العمل بها بل يستنبط اساليب اخرى وادوات جديدة للعمل . والحكومة تغري رعاياها على اتّباع خطة الاستنباط والابتكار بحصرها منافع ما يستنبطونهُ فيهم حتّى يقل المقلدون ويكثر المستنبطون . واصحاب المعامل الكبيرة كمعامل الوراقة والحياكة والصباغة والدباغة وسبك الحديد وعمل الآلات والادوات كلهم سائرون سيرًا حثيثًا في طريق الابتكار والاستنباط ولا يكتفون بما أُعطوا من الحكمة والمهارة بل يستخدمون المخترعين والمستنبطين ويمدونهم بالمال ويجهزونهم بكل ما يلزم من الادوات لكي يخترعوا لهم اختراعات جديدة . ولا يندر ان يجهد انسان عامي قريحتهُ في اختراع اسلوب جديد فيتأدّب اصحاب المعامل ويبتاعون منهُ حق استعمال هذا الاختراع بالوف كثيرة من الجنيهات

والرجال العظام الذين اطنبنا بذكرهم في صفحات المقتطف من حين نشأتهِ الى الآن هم المستقلون المبتكرون كنيوتن وده كارت ولابلاس وهارفي ولستر وفرنكلين وورس وباستور وكوخ واركريط ووط وستفنصن . وتاريخ العمران هو تاريخ هولاء الرجال وامثالهم من قادة الافكار . وكل شهير ومفيد من القوّاد العظام مثل الاسكندر وتيمورلنك ونبوليون الى الاسكاف الذي وضع نحاسةً على راس الحذاء ولمن اكبر فيلسوف ومؤلف ومحرّر الى الذي وضع كراسة صغيرة لتعليم الاطفال كلُّ هولاء قد رقّوا العمران البشري باستقلالهم واستنباطهم واختطاطهم خططًا جديدة

قال احد الاطباء اني افضّل ان ارى تلميذي يخالفني في تشخيص الامراض وعلاجها

ولو كان مخطئًا ويخطِّئني ولو كنت مصيبًا على ان أراهُ يتابعني على ما افعل كأنهُ صدى صوتي

ونقاعد الناس عن الاستقلال والابتكار انما هو كسل وتراخٍ فان الطريق المطروق اسهل من غير المطروق والخطة التي يسير عليها الانسان مرة بعد اخرى يصير السير عليها ملكةً فيهِ لا يكلفهُ مشقةً ولا تعبًا . واما السير في الخطط الجديدة فيستدعي إعمال الفكرة والانتباه الشديد . وقد يستطيع الانسان ان يكتشف امورًا كثيرة باقل تعب وانتباهٍ . يحكى ان رجلاً كان في معمل من معامل البنادق وكان ينظر الى حديدة البندقية نظرة واحدة فيعلم ما اذا كان انبوبها مستويًا او غير مستوٍ ولم يكن احد غيرهُ يعلم ذلك . وحاول صاحب المعمل والصنَّاع الذين فيهِ ان يعلموا منهُ سر هذه الصناعة فابى ذلك عليهم وفي الآخر اغروهُ بالمال الكثير فكشف لهم السر وهو انهُ ينظر في ثقب الحديدة في النور فاذا كان مستويًا رأى جوانبهُ كلها منيرة واذا كان فيهِ اقل تحدب ظهر لهذا التحدب ظلٌّ . والظاهر ان اكتشاف هذهِ الحقيقة لم يكلفهُ شيئًا من التعب . ولكن ما كل اكتشاف يعثر عليهِ عثورًا بل ان اكثر المكتشفين قضوا السنين واحيوا الليالي بالتأمل والامتحان الى ان تمكنوا من اكتشاف ما اكتشفوهُ

وما تقدَّم لا ينفي وجوب التعلُّم والانتفاع باختبار الغير . لانهُ لو ترك كل انسان ما استفادهُ غيرهُ وابتدأ من المبادىء الاولى لبقي العمران في ابسط احوال السذاجة . وانما الغرض ان يتعلم الانسان كل ما علمهُ غيرهُ ثم لا يقف عند هذا الحد بل يعمل فكرتهُ في تخطِّيهِ الى ما امامهُ ولا يقف ايضًا في السنة الثانية عندما وصل اليهِ في السنة الاولى بل يجتهد لكي يتخطاهُ ويتقدَّم خطوة اخرى وهلمَّ جرًّا . قال بعضهم دخلت معملاً كبيرًا من معامل المركبات ورأيت مديرهُ وسألتهُ عن عدد المركبات التي صنعها منذ انشأ المعمل فقال كذا وكذا وكل مركبة احسن من التي قبلها وهذا سر نجاحي

ولا ينكر ان الناس قد يضطرون للتقليد والمتابعة في دور من ادوار تقدمهم كما اذا اتصلوا بشعب ارقى منهم بمراحل كثيرة ولكنَّ هذا التقليد لا يجب ان يزيد عن عشرين سنة او حواليها لان ابناء الشعب المرتقي يولدون كما يولد ابناء الشعب غير المرتقي وفي عشرين سنة او ثلاثين يحصلون ما حصلهُ اباؤهم . مثال ذلك اننا نحن الشرقيين اهالي مصر والشام والعراق وارمينية وبقية الممالك العثمانية اذا دخلنا المدارس مع ابناء الانكليز والفرنسويين ودرسنا معهم العلوم والفنون لا نقصر عنهم بل قد نفوقهم ونحصل في بضع

سنين كل ما يحصله ابناء الفرنسيس والانكليز كما ثبت بالاختبار فاذا كان فينا مبدأ الاستقلال والابتكار وجب ان لا ننصر عنهم في ميدان الحياة بعد ذلك . ولا ننكر ان احوالهم غير احوالنا ووسائطهم غير وسائطنا وبذلك نعذر بعض العذر ولكنّ الانسان المستقل ليس عبدًا لاحوالهِ ووسائطهِ بل سيد عليها . واذا لم يلقَ ابن المشرق ما لقيهُ كوخ من امبراطوره فقد لا يكون نصيبهُ اسوأ من نصيب لافوازيه الذي مات شهيدًا واستشهادهُ لم يُضعف عزائم الاوربيين عن متابعة البحث والاكتشاف . على اننا قد بلغنا والحمد لله زمانًا نبتدأ فيهِ نرى من يعرف قدر الرجال وننهم ولنا الامل الوطيد ان ذلك يزيد شيئًا فشيئًا . فعسى ان يكثر بيننا المستقلون ويقلّ المتابعون

اسرار المتوحشين

التديُّن صفة عامّة لجميع طوائف الناس ولكنهم مختلفون في ذلك اختلافًا عظيمًا من الكثيري السنن الشديدي الوَرَع الى الّذين لا سنّة لهم وليس عندهم من الديانة الاّ شبه اعتقاد بخالق غير معروف وهم اكثر سكان الاوقيانوس الباسيفيكي ومنهم سكان جزائر ملاناريا وقد عُرف بالاستقراء ان هؤلاء الشعوب الّذين لا سنن لهم ولا شعائر دينيّة ولا كهنة يقومون بها قد استعاضوا عن الكهنة والشعائر الدينيّة بطرق سريّة ورسوم خفيّة لا يطّلع عليها الاّ المنتظمون في سلكها . وقد أتيح لاحد الاميركيين ان اطّلع على اسرار اهالي بريطانيا الجديدة ووصفها في العدد الاخير من جريدة العلم العام الاميركيّة وصفًا ترتجف منهُ الفرائص وتهلع لهُ القلوب ويستدلّ منهُ على عظم سلطة الوهم في النفوس فاقتطفنا منهُ ما يأتي

قال يحدث في احد الايام قبل ان يتفرّق الناس الى اعمالهم المختلفة ان يُسمَع صوت منادٍ يقول دكدك دكدك فيسرع الرجال الى اسلحتهم ويقفون في ابواب بيوتهم ويركض النساء والاولاد ويختبئون ويستولي الخوف والرعب على كل احد . ثم يخرج من الغاب رجل قد غطى بدنهُ كلهُ بالقصب والهشيم حتّى لا يظهر منهُ الاّ رجلاهُ وارتفع القصب فوق رأسهِ نحو خمس اقدام في شكل مخروطي ويسمى الدكدك فيعدو على قدميهِ راقصًا بين جميع بيوت القبيلة وكلما وصل الى باب بيت الثنت الى صاحبهِ فاذا رآهُ واقفًا مسلحًا تركهُ وظلّ